المحاضرة الثانية: تحقيق الوجود / الكتابة في الشعر المعاصر

تتحدث الأنا بنوع من الكتابة المتحررة بما هي جنوح للمساءلة والكشف والبوح فبها وعليها يبني صاحب السيرة علاقة مع عالمه، لأن الكتابة بعث للذات واستمرار لها في الآن معا، عبر مسار متأسس على نظام لغوي لا تموت فيه الأفكار بموت صاحبها، لتواشجه بتلك الرغبة في استحضار واقع مضى، وإعادة بناءِ ما تشكل من مراحل حياتية خاصة، وفقا لما يصطلح عليه بالمقصدية (Intentionndité) ومعناها أن هناك توقا ونزوعا نحو الحصول على موضوع ذي قيمة، فهي بهذا المفهوم أساس كل عمل وفعل وتفاعل؛ فالذات لا تحصل على موضوعها إلا بحركة ما، قد تكون عسيرة أو يسيرة، وتتضمن هذه الحركة أطراف متأبية أو منقادة، ومهما يكن الأمر فإن هناك تفاعلا يجري في فضاء وزمان معينين[1]. ومن المهم القول، تفريقا بين من له القدرة على الكتابة وبين من يفتقدها، بأهمية الإبداع وما يقتضيه من مهارة حِرَفِيّة أو طبيعية، يُنظر إليه بوصفه عملا تتوافق فيه الرؤية وأسلوب التنفيذ؛ فالعمل الفني لا يكون خصبا أو عميقا بما ينطوي عليه من رؤية أو دلالة فحسب وإنما أيضا بما ينطوي عليه من أسلوب أدائي[2]، تترجمه الكتابة إلى شكل من أشكال مقاومة الفناء الحسي، وتحقيق للذات وجودا وانتماءً، خلافا للنظرة التي ترى كتابة الذات انفصالا عن واقعها المنتمية إليه؛ فكان يفترض أن تعبر هذه الذات عن واقعها بدل إغراقها في الحديث عن عوالمها ومتاهاتها، بيد أن هنالك فرقا بين خبرة الذات الحياتية ومحاولة نقلها والتعبير عنها شعرا أو نثرا. بعبارة أخرى تستحيل الكتابة خرقا لكل نمطية مفروضة، إنها فضاء من التفاعلات، يخترق بوساطتها الكاتبُ أنواعَ الإبداع الأخرى [3]، محاولا انطلاقا من النص الأدبي اجتياز المسافة الفاصلة بين كتابة الذات وواقعها المعيش الذي تنتمي إليه، وما فيه من تجارب متراكمة، بجعل الإبداع وسيلة لتحقيق وجود الأنا، وبعث هويتها ورقيا، وتأليف صورة جديدة، تتوافر فيها الصفة الجمالية القائمة على أساس من عمليات الاختيار والتفسير والتنظيم [4]. لكن هل للكتابة الشعرية ما يميزها شكلا ومضمونا

---

[1] ينظر: سعد رزوق: موسوعة علم النفس، ص08- 09.

[2] ينظر: سعيد توفيق: الخبرة الجمالية (دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية)، ص145.

[3] ينظر: أبلاغ محمد عبد الجليل: شعرية النص النثري، ص47.

[4] ينظر: عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ص24.

عن غيرها من أنواع الكتابة الأخرى؟ وإن كان الحال كذلك، فما علاقتها بإرادة الفرد المبدع وحريته ووجوده؟ ألا تتجاذبها مؤثرات اجتماعية وحتى إيديولوجية قد تحدّ من هذه الإرادة؟

تعدّ عملية الكتابة "عنصرا معطى من خلال التجلي النصي نفسه؛ إنه آخر كان الحال كذلك، فما علاقتها بإرادة الفرد المبدع وحريته ووجوده؟ ألا تتجاذبها مؤثرات اجتماعية وحتى إيديولوجية قد تحدّ من هذه الإرادة؟

تعدّ عملية الكتابة "عنصرا معطى من خلال التجلي النصي نفسه؛ إنه آخر كان الحال كذلك، فما علاقتها بإرادة الفرد المبدع وحريته ووجوده؟ ألا تتجاذبها مؤثرات اجتماعية وحتى إيديولوجية قد تحدّ من هذه الإرادة؟

تعدّ عملية الكتابة "عنصرا معطى من خلال التجلي النصي نفسه؛ إنه آخر مرحلة داخل مسار يقود من أشد العناصر بساطة إلى أشدها تركيبا، ويتعلق الأمر في هذا المستوى بعملية تنظيم وفق قواعد خاصة لجميع المستويات داخل خطاب منسجم" [1] يسعى المتلقي بوساطته إلى الاطلاع على تجربة الذات. ومن وجهة نظر أخرى، تمثل الكتابة، والرأي لمحمد عابد الجابري، تفكيرا خرج من حالة الاستضمار إلى حالة الاستظهار، من حالة الكتمان إلى حالة الإعلان [2] في تجلٍ للمخبوء من الأفكار وتحول بها إلى مكتوب، له من الخصائص ما يجعله متعال على انتمائه الأول أو ما سماه الجابري حالة الاستضمار.

إن حاضر الكاتبة (الآن) "لا يقتضي (المعاصرة)، وأزمنة الماضي التي تشير إلى انتهاء الأحداث الموصوفة لا تعني أن الأحداث التي تتم في سنة ماضية مضت بالنظر إلى لحظة القراءة"[3]، وهذا ما يحقق لاستحضار الماضي جماليته.

الكتابة، إذًا، وسيلة للخروج من الواقع بموضوعاته ومدركاته والدخول إلى عالم النص بأساليبه ومضامينه، "فامتلاك قلم وورق يخلق شعورا لا يقاوم ومعاناة بالغة، تنتج عن الاضطرار إلى مواجهة الذات، وتحمل الألم والمعاناة الناتجة عن هذه المواجهة" [4].

---

[1] سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائية السردية، ص83.

[2] ينظر: محمد عابد الجابري: حفريات في الذاكرة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص232.

[3] عبد المجيد جحفة: دلالة الزمن في العربية، ص 32.

[4] أمل التميمي: السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، ص202.

ليكون المستخلص من عصارتها انعكاسا لما انجرَّ عن حالة الذات وتقلباتها، وليس خوضها في هذه السبيل إلا توسعة لنطاق تجربتها الذاتية.

إن عملية سرد الأحداث أثناء كتابة الذات مقصورة على تموقع الأنا بوصفها ذات قابلة للتشكل، وتشترط من الشروط الموضوعية والذاتية ما يرقى بها إلى مستوى إبداعي يزيد الكاتب إدراكا لتموقعه الجديد، وإحساسا بامتلاكه الإرادة "في تغيير ذاته، والوصول بها عملا وممارسة إلى أفضل ما يجعله يتبوأ مكانة الذات المسئولة المتخلقة، التي لا هم لها إلا أن تحقق التواصل مع الآخر في هذا الوجود"[1].

هكذا، ما بقي هذا النوع من الكتابة محض تقديس للأنا وإعلاءً لشأنه وبؤرة تتحقق فيها صورة الكمال المرجو بحثا عن المثال المحتذى، كما في أنموذجها الجاهز لدى الكثيرين من المشتغلين بقضاياها، ليتجه اهتمامهم "نحو نمط التعبير من حيث التلفظ وأشكال الخطاب المنتجة من حيث الدلالة (التأويل).

ويستقر أثر هذه المقصدية في تحريك نوازع المتلقي وردود أفعاله، القائمة أصلا على ما سماه سعيد يقطين "الخلفية النصية"؛ والمقصود بها مجموع القيم البنيوية التي تتكون منها النصوص والنصوص الأدبية خاصة، وقد تكون تلك الخلفية مشتركة بين مختلف القراء، وبحسب درجات وعيهم وإدراكهم، كما يمكنها أن تتعدد في مرحلة من مراحل التطور المعرفي، ويمكنها أيضا أن تكون متناقضة، تبعًا لمواقف القارئ نفسه في حكمه على النصوص وتلقيها سلبا وإيجابا[2].

المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

محمود درويش: ذاكرة النسيان
محمود درويش: في حضرة الغياب
سميح القاسم: أحبك كما يشتهي الموت

---

[1] عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، ص281.
[2] ينظر: سعيد يقطين: القراءة والتجربة، ص88.